وَمَضَاتٌ مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ الخَاتَمِ صلى الله عليه وسلم

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ

د. عبد المجيد البيانوني

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الخامسة 1427 هـ

مزيدة ومنقّحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ .. ﴾ الفتح .

الحمد لله حقّ حمده ، والصلاة والسلام على سيدنا محمّد خيرة خلقه وسيّد جنده ، ورضي الله عن أصحابه وأتباعه وأهل ودّه ، وبعد ؛ فإن من أصول عقيدة المسلم أن يعرف نبيّه ﷺ معرفة بيّنة ، تورث محبّته ، وتثمر اتّباعه وطاعته ، وتحصّن دينه وأخلاقه عن أن يكون إمّعة تابعاً لكلّ ناعق ، أو تائهاً وراء كلّ منافق .

وإنّ من أخطر ما ابتليت به الأمّة في شبابها وفتياتها جهلَهم بسيرة نبيّهم وشمائله الزكيّة العطرة ، حتّى لو قلتَ لأحدهم : اكتب ما تعرفه عن نبيّك ﷺ لما تجاوز علمه ملء صفحة من الورق ، وربما كان خطأها أكثر من صوابها ، وربما جاء بالمضحكات المبكيات من المعلومات المشوّهة ، ثمّ لم يكن مبلغه من العلم سوى أسطر قليلة يعرف أضعاف أضعافها عن بعض النكرات من فسّاق عصره ، أو الكفرة التائهين في أطراف الأرض البعيدة ..

فرأيتُ أن أجمع نبذةً موجزةً من السيرة الشريفة ، والشمائل العطرة ، تعرّف شبابنا وفتياتنا بأعظم منّة أسدتها يد العناية الإلهيّة إليهم : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾ آل عمران .

ولعلّ في هذه الوَمَضَات ما يدعو أبناءنا وبناتنا إلى دراسة سيرة المصطفى ﷺ دراسة مؤمن محبّ ، حريص على التأسّي والاتّباع .

والله تعالى أسأل أن يجنّبني الزلل ، ويرزقني الإخلاص في القول والعمل ، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به عباده ، ويكتب لي أجره ، ويعظم عنده ذخره ، إنّه أكرمُ مسئول ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

جدّة في 1414 /3/12 هـ

وكتبه

د. عبد المجيد البيانوني

نداء إلى ناشئتنا !

يا فتية الإسلام !

أيّها الفتى الناشئ ! أيّتُها الفتاة الناشئة !

ها أنتم هؤلاء اليوم أزهارٌ تفتّحُ في روضة الإسلام العظيمة .. تشرقُ وجوهُكم بفطرة الله ، فتشرقُ الحياة بكم ، وتزدهر ، وتبتسم ..

وتقبلُ قلوبُكم على الحياة ، ملؤُها الأملُ والصفاء ، والطهر والنقاء ..

إنّكم لتأملون من الحياة أن تمنحكم بشراً دائماً ، وروحاً ناضرة ، وسعادةً متجدّدة .. ولكنّ هذه الدنيا لا تملك لكم ما تطلبون ، وليس في متاهاتها ما تبتغون ..

لقد وهب الله هذه الحياة سعادة متجدّدة ، وروحاً ناضرة .. ببعثة سيّدنا محمّد ﷺ ، شاهداً ومبشّراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه ، وسراجاً منيراً ، فأخرج الناس من الظلمات إلى النور ، بإذن ربّهم إلى صراط العزيز الحميد ، وفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صمّاً ، وقلوباً غلفاً .. وكان للبشريّة شمساً أضوأ من شمس الكون .. وللأرض كالغيث ، بعدما اشتدّ عطشها ، وطال جدبها ، وأقفر روضها ، وكان للجسد المدنف كالعافية والحبور ، وللعليل كالبلسم الطهور ..

أيّها الناشئان في روضة الإسلام ، وبؤرة النور .!

وجّهوا وجوهكم قبل سيرته ، ويمّموا رحالكم شطر منزله ، واملأوا قلوبكم من محبّته ، واغترفوا من هديه وسنّته ، وجدّدوا بسيرته معالم هذه الحياة ، التي أقفرت ربوعها من الأخلاق والقيم ، عندما تنكّبت عن سبيله ، وضلّت عن طريقه .. وقودوا ركب الإنسانيّة التائه من جديد ، إلى صراط الحقّ ، ومصدر النور ..

﴿ .. قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ المائدة .

وإليكم قبساً من هذه السيرة المنوّرة العطرة ، تدنيكم من روض هذا الحبيب ، وتعطّر أنفاسكم بعَرف روضه النضير ، وتطيّب حياتكم بشذاه الغضّ الرطيب ..

أيّها الناشئون من أبنائنا وبناتنا .!

إنّكم بحاجة ماسّة إلى المثل الأعلى ، الذي تتطلّعون إليه في كلّ خطوةٍ من خطوات حياتكم ، والإنسانِ الكامل الذي تمنحُونَه حبّكم الصادق ، وولاءكم الأسمى .. ولن تجدوا ذلك إلاّ في محمّد بن عبد الله ﷺ ، سيّد الأوّلين والآخرين ..

وإنّنا لنتحمّل نحوكم مسئوليّة جسيمة ، لتقديم الصورة المقرّبة المحبّبة ، نحوَ هذا النبيّ العظيم ..

فهاكم قبساً منْ هذا النور ، وومضة من هَذا السناء الطهور .. وفاء لبعض الحقّ علينا ، والله يتولاّنا وإيّاكم بجميل لطفه وعنايته ، وهو يتولّى الصالحين .

عظمة المصطفى ﷺ وآيات نبوّته :

لقد حبا الله نبيّه ﷺ العزّ المكين ، والنصر المبين ، بشّره أوّل عهده بالنبوّة بقوله سبحانه : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾ الضحى ، فهل ترى عطاء لله أوسع من عطاء الله له في حياته ، وخلال هذه القرون المتطاولة .؟! ورفع له ذكره في العالمين ، فالثناء المحمود عليه كلّ آن ، وبكلّ لسان : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ الشرح ، وأخزى الله عدوّه ، وكبته وكفاه شرّه : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ الحجر ، وقطع أثر مبغضه اللئيم فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ الكوثر .

فانظر أيّها العاقل هذه الآيات بعين البصيرة تكن من أهل السعادة والزيادة .!

واعلم أخي المؤمن وفّقنا الله وإيّاك : أنّه مهما تعدّدت جوانب العظمة في حياة الرسول ﷺ وتحدّث الناس عنها ، وأفردوها بالبحث والعناية فإن مردّها جميعاً إلى العظمة النفسيّة التي جبله الله عليها ، وأودعها في فطرته ، وجعله سيّد ولد آدم بما خصّه من خصائص ، وما حباه من مكرمات ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله سبحانه :

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ الأنعام .

ومما يجلّي المعنى المراد في هذه الآية ما جاء في الحديث الشريف عَنِ المطَّلِبِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ قَالَ : قَالَ الْعَبَّاسُ : بَلَغَهُ ﷺ بَعْضُ مَا يَقُولُ النَّاسُ قَالَ : فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ ، فَقَالَ : (**أَيُّها النَّاسُ ! مَنْ أَنَا ؟ قَالُوا : أَنْتَ رَسُولُ الله ، فَقَالَ : أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، إِنَّ الله خَلَقَ الخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ ، وَخَلَقَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ ، وَجَعَلَهُمْ بُيُوتاً ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتاً ، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتاً ، وَخَيْرُكُمْ نَفْساً**)[1] .

فعظمة محمّد ﷺ تتجلّى في أخلاقه الشريفة ﷺ وشمائله ، التي انبثق عنها كلّ ما اتّصل بشخصيّته من فضائل ومكارم ، وقد دلّ عليها ما جاء به من مبادئ سامية ، وقيم رفيعة ، وما قام به من أعمال جليلة ، وتغيير عظيم في حياة الأمّة التي بعث فيها ، حتى تحقّق فيه بصدق أنه أخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربّهم ، كما أخرج للناس جيلاً قياديّاً صالحاً ، قاد البشريّة بشريعة الله ، وأقام فيهم موازين الحقّ والعدل ، وأنشأ حضارة إنسانيّة فاضلة سعدت بها البشريّة قروناً

وينبغي أن يعلم أن خصال الكمال والجمال في البشر نوعان :

---

(1) . رواه الترمذي في الدعوات /3455/ وفي المناقب /3541/ وقال : هذا حديث حسن ، ورواه أحمد في المسند /24139/ واللفظ له .

- **النوع الأول** : ضروريّ دنيويّ اقتضته الجِبِلّة وضرورة الحياة الدنيا ، وليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب ، ككمال الخلقة ، وجمال الصورة ، وقوّة العقل ، وصحّة الفهم ، وفصاحة اللسان ، وقوّة الحواسّ وسلامة الأعضاء ، وشرف النسب وعزّة القوم ..

ويلحق بهذا النوع ما تدعو ضرورة الحياة إليه ، من المأكل والمشرب ، والملبس والمسكن ، والنوم والمنكح ، والمال والجاه .

وقد تلحق هذه الخصال الأخيرة بالنوع الثاني إذا قصد بها التقوى ، ومعونة البدن على سلوك طريق الآخرة ، وكانت بحدود الحاجة ووفق الشريعة .

- **والنوع الثاني** : مكتسب دينيّ ، وهو ما يحمد فاعله ، ويقرّب إلى الله زلفى ، كالأخلاق العليّة والآداب الشرعيّة : من الدين والعلم ، والحلم والصبر ، والشكر والعدل ، والعفّة والجود ، والعفو والشجاعة ، والحياء والمروءة ، والرفق والرحمة ، وحسن الخلق والمعاشرة .. وقد يكون لبعض الناس من هذه الأخلاق ما هو في الغريزة وأصل الجِبِلّة ، وبعضهم لا تكون فيه فيكتسبها .

فإذا كانت خصال الكمال والجمال ما ذكرنا ، ووجدنا الواحد من الناس يشرف بواحدة منها أو اثنتين ، حتى يعظم بين الناس قدره ، ويضرب باسمه المثل ، فما ظنّك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كلّ هذه الخصال ، إلى ما لا يأخذه عدّ ، ولا يعبّر عنه مقال ، ولا ينال بكسب ولا حيلة ، إلاّ بتخصيص الكبير المتعال ؛ مما خصّ الله به نبيّنا ﷺ ، من فضيلة النبوّة والرسالة ، والخلّة والمحبّة ، وختم النبوّة به وعموم دعوته ، وإعطائه الشفاعة والوسيلة ، وشرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، وعزّة النصر ، وإجابة الدعاء ، وإعطاء السؤل وتمام الفضل ، ونزول السكينة ، والتأييد بالملائكة ، وإيتاء الكتاب والحكمة ، والسبع المثاني والقرآن العظيم ، والتأييد بالمعجزات ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الطعام القليل ببركته ، وانشقاق القمر ، والإسراء والمعراج ، والعصمة من الناس [1] .. وبالجملة فإنّه ﷺ أعلى الناس قدراً ، وأرفعهم ذكراً ، وأكملهم محاسن وفضلاً .

- وصفه الخِلقيّ : **وأما صفته الخِلقيّة** فقد جاء في ذلك ما رواه إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ مِنْ وَلَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ كَانَ عَلِيٌّ رضي الله عنه إِذَا وَصَفَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : (لَمْ يَكُنْ بِالطَّوِيلِ الْمُمَّغِطِ ، وَلا بِالْقَصِيرِ الْمُتَرَدِّدِ ، وَكَانَ رَبْعَةً مِنَ الْقَوْمِ ، وَلَمْ يَكُنْ بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ ، وَلا بِالسَّبِطِ ، كَانَ جَعْداً رَجِلاً ، وَلَمْ يَكُنْ بِالْمُطَهَّمِ ، وَلا بِالْمُكَلْثَمِ ، وَكَانَ فِي الْوَجْهِ تَدْوِيرٌ ، أَبْيَضُ مُشْرَبٌ ، أَدْعَجُ الْعَيْنَيْنِ ، أَهْدَبُ الأَشْفَارِ ، جَلِيلُ الْمَشَاشِ وَالْكَتَدِ ، أَجْرَدُ ذُو مَسْرُبَةٍ ، شَثْنُ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ ، إِذَا مَشَى تَقَلَّعَ كَأَنَّمَا يَمْشِي فِي صَبَبٍ ، وَإِذَا الْتَفَتَ الْتَفَتَ مَعاً ، بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، أَجْوَدُ النَّاسِ كَفّاً ، وَأَشْرَحُهُمْ صَدْراً ، وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَهْجَةً ، وَأَلْيَنُهُمْ عَرِيكَةً ، وَأَكْرَمُهُمْ عِشْرَةً ، مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ يَقُولُ نَاعِتُهُ : لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ مِثْلَهُ) [2] .

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : سَمِعْتُ الأَصْمَعِيَّ يَقُولُ فِي تَفْسِيرِهِ صِفَةَ النَّبِيِّ ﷺ :

---

(1) . ينظر الشفا للقاضي عياض 77/1 وما بعد ، بتصرّف واختصار .

(2) . رواه الترمذي في سننه /3571/ وقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَيْسَ إِسْنَادُهُ بِمُتَّصِلٍ .

- المُمَّغِطُ : الذَّاهِبُ طُولاً ، وَسَمِعْتُ أَعْرَابِيّاً يَقُولُ : تَمَغَّطَ فِي نُشَّابَةٍ أَيْ مَدَّهَا مَدّاً شَدِيداً .

- وَأَمَّا المُتَرَدِّدُ : فَالدَّاخِلُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ قِصَراً .

- وَأَمَّا الْقَطَطُ : فَالشَّدِيدُ الجُعُودَةِ ، وَالرَّجِلُ الَّذِي فِي شَعْرِهِ حُجُونَةٌ ، أَيْ يَنْحَنِي قَلِيلاً .

- وَأَمَّا المُطَهَّمُ : فَالْبَادِنُ الْكَثِيرُ اللَّحْمِ .

- وَأَمَّا المُكَلْثَمُ : فَالمُدَوَّرُ الْوَجْهِ .

- وَأَمَّا المُشْرَبُ : فَهُوَ الَّذِي فِي نَاصِيَتِهِ حُمْرَةٌ .

- وَالأَدْعَجُ : الشَّدِيدُ سَوَادِ الْعَيْنِ .

- وَالأَهْدَبُ الطَّوِيلُ الأَشْفَارِ .

- وَالْكَتَدُ : مُجْتَمَعُ الْكَتِفَيْنِ وَهُوَ الْكَاهِلُ .

- وَالمِسْرُبَةُ : هُوَ الشَّعْرُ الدَّقِيقُ الَّذِي هُوَ كَأَنَّهُ قَضِيبٌ مِنَ الصَّدْرِ إِلَى السُّرَّةِ .

- وَالشَّثْنُ : الْغَلِيظُ الأَصَابِعِ مِنَ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ .

- وَالتَّقَلُّعُ : أَنْ يَمْشِيَ بِقُوَّةٍ .

- وَالصَّبَبُ : الحُدُورُ ، يَقُولُ : انْحَدَرْنَا فِي صَبُوبٍ وَصَبَبٍ .

- وَقَوْلُهُ : جَلِيلُ المَشَاشِ يُرِيدُ رُءُوسَ المَنَاكِبِ .

- وَالْعِشْرَةُ : الصُّحْبَةُ ، وَالْعَشِيرُ الصَّاحِبُ .

- وَالْبَدِيهَةُ : المُفَاجَأَةُ ، يُقَالُ : بَدَهْتُهُ بِأَمْرٍ أَيْ فَجَأْتُهُ .

وعَنْ نَافِعِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ : " لَمْ يَكُنْ رَسُولُ الله ﷺ بِالطَّوِيلِ وَلا بِالْقَصِيرِ ، شَثْنَ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ ، ضَخْمَ الرَّأْسِ ، ضَخْمَ الْكَرَادِيسِ ، طَوِيلَ المِسْرُبَةِ ، إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ تَكَفُّؤاً كَأَنَّمَا انْحَطَّ مِنْ صَبَبٍ ، لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ مِثْلَهُ " [1] .

وعَنْ رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ وَلا بِالْقَصِيرِ ، وَلَيْسَ بِالأَبْيَضِ الأَمْهَقِ ، وَلَيْسَ بِالآدَمِ ، وَلَيْسَ بِالجَعْدِ الْقَطَطِ ، وَلا بِالسَّبْطِ ، بَعَثَهُ الله عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً فَأَقَامَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ ، وَبِالمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ ، وَتَوَفَّاهُ الله عَلَى رَأْسِ سِتِّينَ سَنَةً ، وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعَرَةً بَيْضَاءَ [2] .

إنّ الأمانة هي ملتقى الفضائل النفسيّة كلها ، وقوامها : اعتدال الفطرة ، وسموّ الهمّة ، واتّزان الشخصيّة ، وعفّة النفس ، وتجرّدها عن سفساف الأمور والاهتمامات الدنيا .

---

(1) . رواه الترمذي في المناقب /3570/ وقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ورواه أحمد في المسند .

(2) - رواه البخاري في اللباس/5449/وفي المناقب /3284/ و/3285/ ومسلم في الفضائل/4330/ والترمذي في المناقب/3556/وأحمد /13031/ ومالك في الموطّأ /1434/ .

ولقد شهدت قريش بإجماع رجالها وعقلائها لرسول الله ﷺ بالأمانة قبل نبوّته وشهد له القرآن الكريم بالخلق العظيم بعد رسالته ، ولا بدّ من نظرة إلى شهادة قريش من زاويتين :

- **الزاوية الأولى** : من زاوية الدافع إلى هذه الشهادة وقيمتها ؛ فلابدّ أن الأمانة التي تحلّى بها النبيّ ﷺ كانت ظاهرة محلّ بروز وتألّق وتميّز ، في شخصيّته وسلوكه ، بصورة جذبت أنظار المراقبين ، ولفتت انتباه المجتمع من حوله ﷺ ، وانتزعت منهم شدّة إعجابهم ، كما كانت تعبيراً عن اجتماع حقائقها ، وتآلف معانيها ، لتكون حقيقة كبرى ، تنتظم من خلالها شخصيّة المصطفى ﷺ بصورة معجزة إنسانيّة لم يسبق لها مثيل ، كلّ ذلك كان في بيئة ، لم تكن بيئة علم وتثقيف ، ولم تعرف من الأمانة إلا جزئيّات متناثرة ، ولم تعرفها كلاً لا يقبل التجزيء أجمع والتبعيض إلا في حياة محمّد ﷺ وسلوكه ، ولولا فقد بيئته لهذه الصفة ، واجتماع حقائقها ، وتآلف معانيها فيه لما أجمع قومه على وصفه بها ، ولما كان في ذلك كبير فائدة ، أو مزيد مزيّة .

- **والزاوية الأخرى** : أن هذه الشهادة من قريش كانت عن مرحلة تعدّ أخطر المراحل التي يمرّ بها الشاب ، وهي مرحلة اكتمال الرجولة ، واتّقاد الغرائز ، وهي مرحلة تختلف فيها الأغراض والغايات ، والنوازع والاتّجاهات ، وفي الشابّ في تلك المرحلة من موفور القوّة ما يجعله يندفع وراء تحقيقها إلى أقصى المدى ، ومع ذلك كلّه فقد بقي هذا اللقب يصحب محمّداً ﷺ ويطبع شخصيّته طيلة حياته قبل البعثة ، ولم تعرف عنه قريش ما يخرم هذه الأمانة أو يشذّ عنها ، فمن ثمّ لم تستطع قريش أن تنزع هذا اللقب عن محمّد ﷺ بعد رسالته ؟ كما أنها لم تستطع أن تمنحه أحداً من زعمائها ؟ حتى أولئك الذين كانت تأتمر بأمرهم ، وتصدر عن رأيهم ؟.

فهل أنطق الله تعالى قريشاً بما قالت ، ليكون من قولها حجّة ساطعة لمن يقول بعصمة الأنبياء قبل النبوّة وبعدها ؟ ولتكون تلك الحجّة على لسان المخالف المعادي أبلغ في الشهادة ، وأقوم في البيّنة ، وأدنى ألا يرتاب المرتابون .؟

ثمّ إن هذه الشهادة من قريش تدلّ على أن الأمانة التي عرفتها قريش في شخصيّته ﷺ ، كانت خلقاً أصيلاً نابعاً من فطرته ، التي فطره الله عليها ، واختصّه بها ، بما تحوي من الفضائل والكمالات ، فمن ثمّ فقد كان ﷺ معزولاً عن البيئة المحيطة به ، ومحصّناً عنها ؛ فأنى لها أن تؤثّر فيه ، أو تغيّره ؟ وإن منطق الحقّ في مثله أن يؤثّر فيما حوله ولا يتأثّر ، وأن يغالب الظواهر الاجتماعيّة ، ويتغلّب عليها ، حتى يصهرها في فضائله ، ويشحنها بنسائمه ، ويطبعها بطابع منهجه ورسالته .

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ : سَأَلْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ : أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؟ فَقَالَتْ : (**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ**)[1] .

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : أَتَيْتُ عَائِشَةَ ، فَقُلْتُ : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؟ قَالَتْ : (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴿٤﴾ ﴾ القلم ، قُلْتُ : فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ

(1) . رواه أحمد في المسند /24139/ .

أَتَبَتَّلَ قَالَتْ : لا تَفْعَلْ ، أَمَا تَقْرَأُ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... ﴿٢١﴾ ﴾ الأحزاب ، فَقَدْ تَزَوَّجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَدْ وُلِدَ لَهُ [1] .

فهل عرفت قريش فتىً أطهر سيرة ، وأزكى سريرة ، وأشرف نسباً ، وأكرم حسباً ، وأعظم خلقاً من محمّد بن عبد الله ﷺ .؟

لقد لقّبته الأمين ، وأجمع على ذلك عقلاؤها ، ولو عرفت أحد زعمائها بذلك لما ضنّت عليه بتلك الصفات واختصّت بها محمّداً ﷺ من دونه .

ووصفته زوجه العاقلة الحكيمة وقد عاشت معه خمس عشرة سنة ، خبرت خلالها شخصيّته وأخلاقه ، فقالت له أول عهده برسالة السماء ، وقد داخله الخوف مما جرى معه :

" **كلا ! واللهِ لا يُخزيكَ اللهُ أبداً ؛ إنّكَ لَتَصِلُ الرحِمَ ، وتحمِلُ الكَلّ ، وتَقري الضيفَ ، وتَكسِبُ المَعدُومَ ، وَتُعينُ على نَوائِبِ الحقّ** " .

لقد كان ﷺ دائم السؤال لله عزّ وجلّ ، كثير الضراعة والابتهال ، أن يزيّنه الله بمكارم الأخلاق والآداب ، وكان يقول : (**اللهمّ كما حسّنت خَلقي فحسّن خُلُقي**) ، فكان خلقه القرآن يرضى لرضاه ، ويغضب لغضبه ألا تقرءون القرآن .؟ لقد كان الصورة الحيّة للحقّ الذي بعثه الله به ، واصطفاه لنشره وإحيائه ، وإنّك لن ترى شيئاً من آداب القرآن إلاّ وكانت صورتَه العمليّةَ حياةُ محمّد ﷺ : ﴿ .. وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ النساء .

ولقد لخّص ﷺ الغاية من بعثته ، والأهداف العليا لرسالته بقوله ﷺ : (**إنما بعثتُ لأتمّمَ مكارمَ الأخلاق**) .. فهل ترى في شيء من رسالته وهديه ما ينزل عن أكمل الأخلاق ، وأحسن الآداب .؟

وكان حسن العشرة ، كريم الصنيعة ، ليّن الجانب ، يحبّ اليسر ويؤثره ، ما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه ، بعث بالحنيفيّة السمحة ، وأرسله الله رحمة للعالمين ، وبشرى للمؤمنين .

لقد رفع رسول الله ﷺ همم أمّته ليكونوا عندما يحبّه الله لهم ويرضاه ؛ فبيّن لهم أن الله تعالى يحبّ معالي الأمور ، ويكره سفسافها .

وكان ﷺ يحبّ بذل المعروف ، ويدعو إلى خصال الخير كلّها ، كإطعام الطعام وإفشاء السلام ، وعيادة المريض ، وتشييع الجنائز ، وخدمة الضعيف ، وإغاثة اللهفان ، وإجابة الدعوة .

وكان ﷺ يجيب دعوة الحرّ والعبد ، ولا يأنف عن إجابة الضعيف المسكين ، أو العبد أو الأمة .

وكان ﷺ يدعو أصحابه إلى ما يهدى إليه من طعام ، ولا يؤثر نفسه أو أهله به ، ويتفقّد أهل الفاقة من أصحابه ، ويحسن إليهم ويواسيهم ، ولا يختصّ دونهم بشيء .

وكان ﷺ يحبّ العفو ، ويسعى في الإصلاح بين الناس ، ويحرص على جمع القلوب على الحقّ والهدى .

---

(1) . رواه أحمد في المسند /23460/ .

وإنّ المجتمعات القبليّة هي أشدّ المجتمعات حفاظاً على التقاليد والعادات ، وأعتاها في الخصومة والبغضاء ، وأعصى على التطويع ، وأبعد عن التأليف والتجميع ، ومع ذلك كلّه .. وغيره وغيره .. فقد ذابت بدعوة رسول الله ﷺ عصبيّة الجاهليّة وطغيانها ، وامّحى عنفوانها ونعراتها في مدّة لا تزيد عن عقدين من الزمن ، ما هما إلاّ كلمحتين من نظر التاريخ ووعيه وتطوّره وتقلّب أحداثه .

فهل رأيت عظيماً من عظماء الدنيا كلّها استطاع أن يجمع القلوب النافرة ، والنفوس الجامحة ، بقوّة الحبّ ، وسلطان الحقائق الإنسانيّة الخالدة التي أحكمت بالدين ، ثمّ فصّلت على ثوب الفطرة فكانت صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة !؟.

فما استطاع أحد أن يجمع القلوب المتنافرة ، ويؤلّف بين النفوس المتباينة كما استطاع ذلك رسول الله ﷺ بإذن الله تعالى وتوفيقه ، ومنّته وعنايته : ﴿ .. هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ الأنفال .

لقد وقف رسول الله ﷺ يعلن إعلاناً لم يكن شعاراً يرفع ، ولا دعوى يتمنّى بلوغها المصلحون ، أو يطمح إليها الطامحون ، وإنما كانت حقيقة ناصعة ، توّجت جهاد عقدين من الزمن ، وترجمت نجاح دعوته ، وأهداف رسالته ، وكأنها صورة من صور الشكر والثناء على الله تبارك وتعالى بما أنعم وتفضّل .. وقف المصطفى ﷺ ليقول في حجّة الوداع : (**إنّ كلّ شيء من أمر الجاهليّة موضوعٌ تحتَ قدميّ هاتين** ..) .

فانظر : أكانت تلك دعوى ، أم أنها حقيقة عليا بلغتها الدعوة .؟!

لقد كانت ساعات عمره شهوراً ، وشهوره أعواماً ، وأعوامه تحتضن أجيالاً ، هي مجمل ما قدّر الله من عمر للإنسانيّة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ فكان يجاهد بلسانه وسيفه ، ويرشد أصحابه ويؤدّبهم ، ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم ، بأقواله وأفعاله وأحواله ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ..

وكان ﷺ يتقدّم أصحابه في ساحات الوغى ، فما يكون أحد منهم أقرب إلى العدوّ منه ، وإن الشجاع منهم من يستطيع أن يحاذي به في ساعات القتال ، وكان يصفّهم للقتال كما يصفّهم للصلاة ، ويحثّهم على تسوية الصفوف كما تصفّ الملائكة .

وكان ﷺ أشجع الناس ، وأثبت الناس ، وأصبر الناس ، وكان إذا اشتدّ البأس ، واحمرّت الحدق ، اتّقى أصحابه به ، فما يكون أحد أقرب إلى العدوّ منه ، وكان يعلن عن نفسه في أرض المعركة ولا يستتر .

وكان ﷺ ينظّم الجيوش ، ويصدر الأوامر للقوّاد ، ويحثّهم على الصبر والجهاد ، وكان يستشيرهم في كلّ شأن لم ينزل فيه وحي ، وينزل على ما يراه صواباً من آرائهم ، وكان يدبّر لهم الخطط الحربيّة ، ويدرّبهم على القيادة والحزم في أمورهم ..

وكان ﷺ إذا خطب احمرّت عيناه ، وعلا صوته ، واشتدّ غضبه ، كأنه منذر جيش يقول : صبّحكم .. مسّاكم ..

وكان ﷺ إذا دخل بيته يكون في مهنة أهله : يخدمهم ، ويخدم نفسه ؛ فيرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويتلطّف في عشرة أهله ويحسن معاملتهم ؛ فيداعب الصغير ، ويؤنس الكبير ، ويغضي عن الهفوة ، ويؤلّف بين نسائه ، ويخفّف من غيرتهنّ .

وما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً ولا امرأة إلاّ أن يجاهدَ في سبيل الله تعالى .

وكان ربما غفل الخادم عن الأمر يطلبه منه فلا يرضى لأحد من أهله أن يعنّفه ، ويقول : (**دعوه ، فلو قُدّر أمرٌ لكان**) .

خدمه أنس بن مالك ﷺ عشر سنين ، " **فما قال له لشيء فعله : لم فعلته .؟ ، ولا لشيء تركه لم تركته .؟** " .

وكان ﷺ إذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة ، لا يشغله عن طاعة ربّه شيء ، وإذا خلا إلى نفسه انقطع إلى عبادة الله تعالى ، والضراعة إليه ، لا يطيق أحد - مهما اجتهد - أن يجاريه في صلاته ودعائه ، وصيامه وعبادته ؛ فكان يقوم من الليل حتى تتفطّر قدماه ، وكان يقوم نصف الليل ، أو يزيد عليه ، ثمّ يكون في النهار في رعاية أصحابه وتعليمهم ، وفي جهاد الدعوة ، وقيادة الأمّة .

وكان ﷺ يصوم حتى يقول أهله : " لا يفطر " لكثرة صيامه ، ويواصل الصوم يومين وثلاثة أيام أو أكثر ، وينهى أصحابه عن ذلك رحمة بهم ، وشفقة عليهم ، لأنّه ليس مثلهم ، يبيت عند ربّه يطعمه ربّه ويسقيه .

وكان ﷺ أسخى الناس كفّاً ، ما سئل شيئاً فقال : لا .

وكان أجود بالخير من الريح المرسلة ، وكان ربّما يسأل العطاء فلا يجده ، فيقول لسائله ﷺ : (**استدن عليّ ، حتى يأتينا مال فنقضيه**) .

وكان يُعطي عطاءَ من لا يخشى الفقر ، ولم يزل يُعطي المؤلّفةَ قلوبهم ، حتّى أحبّوه أعظم الحبّ ، وأصبحوا يؤثرونه على أنفسهم وأهليهم .

وكان ﷺ يعطي العطايا الجزيلة ، ويبيت طاوياً هو وأهله ، لم يخصّ نفسه بشيء ، ولم يحمل إلى بيته درهماً مما يأتيه .

وكان ﷺ يعفو عمّن ظلمه ، ويصل من قطعه ، ويعطي من حرمه ، ولم يكن يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها ، وإنما يغضب إذا انتهكت حرمات الله ، فإذا انتهكت حرمات الله تعالى لم يقم لغضبه شيء .

ولقد أوذي في الله تعالى أشدّ الإيذاء ، فلم يدع على قومه ، ولم يتطلّع إلى الانتقام منهم ، وإنما كان يقول : (**اللهمّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون**) .

وعندما نال ﷺ منهم أشدّ الأذى عُرض عليه عذابهم وهلاكهم ، فقال : (**لا ، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ، لا يشرك به شيئاً**) .

وكان ﷺ أحلم الناس وأشجع الناس ، وأعدل الناس ، وأعفّ الناس ، لم تمسّ يده يد امرأة لا تحلّ له

وكان ﷺ أشدّ الناس حياءً ، وكان أشدّ حياءً من العذراء في خدرها ، وكان لا يثبت بصره في وجه أحد ، يُغضي عمّا يكره ، ويتغافل عمّا لا يَشتهي .

وكان ﷺ يقبل الهديّة ، ويثيب عليها بأكثر منها ، ويأكل الهديّة ، ولا يأكل الصدقة .

وكان ﷺ يعصب الحجر على بطنه من الجوع ، وربما عصب الحجرين ، وإذا لم يجد ما يأكل أتمّ يومه صائماً .

وكان ﷺ يأكل ما حضر ، ولا يأكل متّكئاً ولا على خوان ، وكان إذا تغدّى لم يتعشّ ، وإذا تعشّى لم يتغدّ ، ولم يشبع من خبز الشعير ثلاثة أيام متتالية حتى لقي الله عزّ وجلّ ، زهداً في الدنيا ، وإيثاراً للآخرة على الأولى ، لا فقراً ولا بخلاً .

وكان يمرّ الهلال والهلال والهلال ، ثلاثة أهلّة في شهرين وما يوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار ، وإنما كان طعامهم الأسودان : التمر والماء .

وكان ﷺ ربما يأتيه الضيف يريد أن يطعمه ، فيرسل إلى زوجاته هل عندكنّ من طعام .؟ فتقسم كلّ واحدة منهنّ أن ليس لديها من طعام ، فيأخذ الضيف بعض أصحابه .

وإنما كان هذا الحال اختياراً منه ﷺ ، فقد خيّره الله تعالى بين أن يكون نبيّاً عبداً ، أو يكون نبيّاً ملكاً ، فاختار أن يكون عبداً نبيّاً ، وقال : (**أجوع يوماً فأصبر ، وأشبع يوماً فأشكر**) .

وكان أحسن الناس وجهاً ، وأظهرهم بشراً ، وأكثرهم تواضعاً ، قد أعطاه الله جوامع الكلم ، وشوارد الحكم ، واختصر له الكلام اختصاراً ، لا يهوله شيء من شئون الدنيا ، إذا رأى ما يعجب منها قال : (**اللهمّ لا عيش إلا عيش الآخرة** ..) ، لا يمدّ عينيه إلى زينة الدنيا وزهرتها ، وكان يقول :

(**ما لي وللدنيا .؟! ما أنا في الدنيا إلاّ كراكب استظلّ تحت شجرة ، ثمّ راح وتركها**) .

وكان ﷺ يلبس ما وجد ، ويركب ما تيسّر له من فرس ، أو بغلة ، أو حمار ، أو بعير ، ويردف خلفه عبده أو غيره ، وكان يمشي راجلاً ، حافياً أو بنعلين أو خفّين ، وربما مشى بغير رداء ، ولا عمامة ولا قلنسوة .

وكان ﷺ يحبّ الطيب ، ويأمر أصحابه بحسن المظهر ، ويكره لهم الرثاثة ، ويكره كلّ رائحة كريهة ، ويجالس الفقراء ، ويؤاكل المساكين ويقبل على جليسه حتى يرى أن ليس أحد أفضل عنده منه ، ويكرم أهل الفضل ويدنيهم ، وينزلهم منازلهم ، ويعرف للناس أقدارهم ، ويتألّف أهل الشرف بالبرّ بهم ، ويصل رحمه ، ولا ينساهم ، غير أنه لا يؤثرهم على من هو أفضل منهم ، ويقبل المعذرة ، ولا يجفو في وجه أحد ، قد وسع الناسَ حلمُه وبرُّه .

وكان ﷺ يمازح أصحابه ونساءه ، ويداعب الأطفال غير أنّه لا يقول في ذلك كلّه إلاّ حقّاً ، ولا ينطق إلا صدقاً ، وكان جُلّ ضحكه التبسّم ، وربما ضحك من غير قهقهة .

وكان ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ليست له راحة ، ولا يتكلّم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه - لا بأطراف فمه - ويتكلّم بجوامع الكلم فصلاً لا فضول فيه ، ولا تقصير ، دمثاً ليس بالجافي ولا بالمهين ، يعظّم النعمة وإن دقّت لا يذمّ شيئاً ولا يعيبه ، ولم يكن يذمّ طعاماً ولا يمدحه ، إن اشتهاه أكله ، وإن كرهه تركه .

وكان ﷺ لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، وإذا انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، إذا أشار أشار بكفّه كلّها ، وإذا تعجّب قلبها ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غضّ طرفه ، جُلّ ضحِكِه التبسّمُ ، ويَفترّ عن مثل حبّ الغمام ، وكان لا يثبت نظره في وجه أحد ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى السماء ، جلّ نظره الملاحظة ، ولا يشافه أحداً بما يكره ، وإذا بلغه عن أحد ما يكرهه قال : (**ما بال قوم يفعلون كذا وكذا** .؟!) .

وكان ﷺ يخزن لسانه عمّا لا يعنيه ، يؤلّف أصحابه ولا ينفّرهم ، ويجمعهم ولا يفرّقهم ، يكرم كريم كلّ قوم ، ويولّيه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم ، من غير أن يطوي عن أحد بِشره ..

وكان ﷺ يتفقّد أصحابه ، ويسأل الناس عما في الناس ويحسّن الحسن ويصوّبه ، ويقبّح القبيح ويوهنه ، معتدل الأمر غير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملّوا ، لكلّ حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحقّ ولا يجاوزه ، يليه من الناس خيارهم وأفضلهم عنده أعمّهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة .

وكان ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلاّ على ذكر ، ولا يوطّن الأماكن - أي لا يميّز لنفسه مكاناً خاصّاً - وينهى عن توطينها ، وإذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك ، ويعطي كلّ جلسائه نصيبه ، حتّى لا يحسب جليسه أنّ أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يردّه إلا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه ؛ فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحقّ سواء ، يتفاضلون عنده بالتقوى ، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن فيه الحرم ، ولا تخشى

فلتاته ، يوقّرون فيه الكبير ، ويرحمون الصغير ، ويرفدون ذا الحاجة ، ويؤنسون الغريب ، وكان أحبّ إليهم أن يقوموا إليه إذا حضر إليهم ، إلاّ أنهم كانوا لا يقومون لما يعلمون من كراهته لذلك ، وكان ينهاهم أن يطروه كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم عليه السلام ، ويقول لهم : (**قولوا : عبد الله ورسوله**) .

وكان ﷺ يقول : (**إنما أنا عبدٌ ، أجلِسُ كما يجلِسُ العبدُ ، وآكلُ كما يأكُلُ العبدُ**) .

وقال ﷺ مرّة لرجل هابه حتّى ارتعدت فرائصه : (**هوّن عليكَ ، إنما أنا ابنُ امرأة كانَت تأكُلُ القَديدَ بمكّةَ**) .

- وكان ﷺ دائم البشر ، سهل الخلق ، ليّن الجانب ، ليس بفظّ ، ولا غليظ ، ولا صخّاب ، ولا فحّاش ، ولا عيّاب ، ولا مدّاح ، ولا يجزي بالسيّئة السيّئة ، ولكن يعفو ويصفح ، يتغافل عمّا لا يشتهي ، ولا يُقنط منه ، قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثار ، وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث : لا يذمّ أحداً ، ولا يعيّره ، ولا يطلب عورته .

- وكان ﷺ لا يتكلّم إلاّ فيما يرجو ثوابه ، وإذا تكلّم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير ، وإذا سكت تكلّموا ، لا يتنازعون عنده الحديث من تكلّم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم حديث أوّلهم ، يضحك مما يضحكون منه ، ويعجب مما يعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق ، ويقول : (**إذا رأيتُم صاحبَ الحاجة فأرفِدُوه**) ، ولا يطلب الثناء إلاّ من مكافئ .

وكان ﷺ أوقرَ الناس في مجلسه ، لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه ، وكان كثير السكوت ، لا يتكلّم من غير حاجة ، يُعرض عمّن تكلّم بغير جميل .

وكان ﷺ ضحكه تبسّماً ، وكلامه فصلاً ، لا فضول ولا تقصير ، وكان إذا تكلّم رؤي كالنور يخرج من بين ثناياه .

وكان ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأحسنهم خلقاً ، لو رأيته رأيت الشمس طالعة ، وكان إذا سرّ استنار وجهه حتّى كأنّه قطعةُ قمر .

يقول أبو هريرة رضي الله عنه : " **ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجري في وجهه ، وما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ ، كأنما الأرض تطوى له ، وإنا لنجهد أنفسنا ، وإنه لغير مكترث** " .

وكان ﷺ إذا مشى تقلّع ، كأنما يمشي في صبب ، أو تكفّأ تكفّياً ، كأنما ينحطّ من صبب ، وإذا صمت علاه الوقار ، وإذا تكلّم علاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنهم وأحلاهم من قريب ، حلو المنطق ، لا نزر ، ولا هذر ، كأن منطقه خرزات نظمن يتحدّرن .

وكان ﷺ إذا التفت التفت معاً ، وكان أجود الناس كفّاً ، وأجرأ الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمّة وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، مَن رآه بديهةً هابَه ، ومَن خالطَه معرفةً أحبّه ، يقولُ واصفُه : (**لم أرَ قبلَه ، ولا بعدَه مثلَه**) .

وكان يتكلّم بالكلام لو عدّه العادّ لأحصاه ولم يكن يسرد الحديث سرداً ، وكان يعيد الكلمة ثلاثاً لتعقل عنه .

ولم ير ﷺ قطّ مادّاً رجليه بين أصحابه ، وما دعاه أحد من أصحابه إلاّ قال : (**لبّيك .. لبّيك** ..) .

وكان ﷺ يكره أن يتميّز على أصحابه .

وكان ﷺ يمازح أصحابه ، ويخالطهم ، ويحادثهم ، ويؤنسهم ، ويأخذ معهم في تدبير أمورهم ، ويسألهم عن خاصّة شئونهم ، ليعينهم على حاجاتهم ، ويداعب صبيانهم ، ويمازحهم ، ويجلسهم في حجره ، فربّما بال الصبيّ في حجره ، فلا يزيد على أن ينضح الماء على بوله ، ولا يتغيّر .

وكان ﷺ يصلّي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء ..

وكان يقول : (**إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له**) .

وكان ﷺ لا يخصّ أهل بيته دون الناس ، بل كان لا يساويهم بهم ، ويؤثر أصحابه بالعطاء دونهم ، تعليماً لهم على الزهد في الدنيا ، وإيثار الآخرة عليها ، أتاه مرّة سبي كثير فشكت إليه ابنته فاطمة رضي الله عنها ما تلقى من عناء خدمة البيت ، وطلبت منه خادماً يكفيها مئونة بيتها ، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد ، وقال لها ﷺ : (**لا أعطيكِ ، وأدعُ أهلَ الصفّة تَطوي بُطونُهم من الجوع**) .

وكانت مجالسه ﷺ مع أصحابه مجالس تذكير بالله سبحانه وتعالى ، وتعليم ، وترغيب وترهيب ، وإنذار وتبشير ، مما يوجب لهم رقّة القلوب ، والزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة ، والخروج عن الحظوظ النفسانيّة والأهواء البشريّة .

وكان ﷺ يوصي أصحابه بتقوى الله عزّ وجلّ ، وصدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، ورعاية حقّ الجار ، والإحسان إليه وإكرام الضيف ، ورحمة اليتيم ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، وإطعام الطعام ، وتوقير ذي الشيبة ، والعفو والإصلاح بين الناس ، وكظم الغيظ ، والبعد عن الغضب ، وكثرة الذكر ، والاستغفار .

وكان أصحابه ربما عدّوا له في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرّة يستغفر الله تعالى ، ويتوب إليه .

ولقد أبطل بدين الإسلام كلّ عادات الجاهليّة ، وأخلاقها ومفاسدها ؛ فأبطل الغناء والمعازف ، وكلّ ذي وتر ، وحرّم الكذب والغيبة ، والبخل والشحّ ، والمكر والخديعة ، وسوء الظنّ ، وفساد ذات البين ، وقطيعة الأرحام ، والكبر وسوء الخلق ، والفخر والاختيال ، وقول الزور وشهادة الزور ، والحقد والحسد ، والسحر والطيرة ، والبغي والعدوان ، والبهت والنميمة ، والظلم وأكل أموال الناس بالباطل .

ولم يكن شيء أبغض إليه من الكذب ، وكان إذا اطّلع على كذبة من بعض أهله لم يزل متغيّر الوجه معه حتّى يحدث توبة من ذلك .

وكان ﷺ إذا أوى إلى منزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء : جزء لله ، وجزء لنفسه ، وجزء لأهله ، ثمّ جزّأ جزأه بينه وبين الناس ، فيردّ ذلك بالخاصّة على العامّة ، ولا يدّخر عنهم شيئاً .

وكان من سيرته ﷺ في جزء الأمّة : إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين :

فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج ، فيتشاغل بهم ، ويشغلهم فيما يصلحهم والأمّة من مسألتهم عنه ، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم ، ويقول : (**ليبلّغ الشاهدُ الغائبَ ، وأبلغوني حاجةَ مَن لا يستطيعُ إبلاغَها ، فإنّه مَن أبلغ سُلطاناً حَاجةَ مَن لا يَستطيعُ إبلاغَها ثبّتَ اللهُ قدميه يومَ القيامة**) ، لا يذكر عنده إلاّ ذلك ، ولا يقبل من أحد غيره .. يدخلون روّاداً ، ولا يفترقون إلا على ذواق ، ويخرجون أدلّة على الخير .

وكان ﷺ يكثر أن يشاور أصحابه ، فيما لم ينزل فيه وحي ، وينزل عند رأي بعضهم ويعمل به ، وقال لصاحبيه ووزيريه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما : (**لَوِ اجْتَمَعْتُمَا فِي مَشُورَةٍ مَا خَالَفْتُكُمَا**) [1] .

وكان ﷺ يكنّي أصحابه ، ويدعوهم بأحبّ الأسماء إليهم ، ويغيّر لهم الأسماء القبيحة أو المكروهة إلى أسماء حسنة .

وكان ينهى عن الطِّيرة ، ويُعجبه الفأل الحسن ، وهو الكلمة الطيّبة ، وكان يعجبه التيمّن في تنعّله وترجّله ، وفي طهوره ، وفي شأنه كلّه .

وكان ﷺ أبعد الناس في هديه وسيرته عن كلّ ما نهى الناس عنه ، قد شُغف قلبه الشريف بعبادة ربّه ، والاستغراق في مناجاته وذكره ، قام من الليل حتى تورّمت قدماه وتفطّرت ، فأشفق عليه أهله وأصحابه ، وقالوا له : أتفعل ذلك يا رسول الله ، وقد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر .؟ قال : (**أفلا أكون عبداً شكوراً !؟**) .

وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ..

وكان يقول : (**أرحنا بها يا بلال ! أرحنا بها يا بلال !**) .

وكان يقول أيضاً : (.. **وَجُعِلَت قُرّةُ عَيني في الصَّلاةِ**) .

وكان آخر كلامه من الدنيا ﷺ : (**الصَّلاةَ .. الصَّلاةَ .. وَمَا مَلَكَتْ أيمانُكُم ..**

اتّقُوا اللهَ فِيمَا مَلَكَتْ أيمانُكُم ..) .

(1) . كما في مسند الإمام أحمد : /17309/ .

الخاتمة

وبعد ؛ فإذا لم يكن محمّد بن عبد الله ﷺ نبيّاً ، بل أفضل من اجتباهم الله بالنبوّة ، وحباهم بالرسالة ، فمن عسى أن يكون نبيّاً .؟ وماذا يثبت من نبوّة سواه من الأنبياء .؟

وإذا كان أهل الكتاب يقرّون باصطفاء الله بعض خلقه بالنبوّة ، وتكليفهم بالرسالة ، فأنى لهم أن يثبتوا نبوّة أنبيائهم إن لم يعترفوا بنبوّة محمّد ﷺ ورسالته .؟!

وإن لم يكن هذا الفضل العظيم الذي أسداه محمّد بن عبد الله ﷺ للإنسانيّة ، وهذه الأمّة العظيمة التي أخرجها خير أمّة للناس بإذن الله .. إن لم يكن ذلك من عمل النبوّة فماذا يمكن أن يكون إذن .؟

وهل يمكن أن يقاس ما قدّمه محمّد بن عبد الله ﷺ للإنسانيّة بما قدّمه من سبقه من الأنبياء .؟

قل : صدق الله ، ومن أصدق من الله حديثاً : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ الأحزاب .

هذا والله تعالى أعلمُ ، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصَحبه وسلّم والحمد لله ربّ العالمين .

* صدر للمؤلّف *

1 ـ ضرب الأمثال في القرآن أهدافه التربويّة وآثاره .

2 ـ وجوب وحدة المسلمين .

3 ـ رسالة المعلّم وآداب العالم والمتعلّم .

4 ـ اعرف نبيّك محمّداً ﷺ يا بنيّ . !

5 ـ ومضات من هدي النبيّ الخاتم ﷺ .

6 ـ البيّنات في تفسير سورة الحجرات .

7 ـ المنهج القويم للداعية الحكيم .

8 ـ مشاهد الأتقياء في الصبر على الابتلاء .

9 ـ رسالتان في التربية .

10 ـ صور وعبر من لطائف القدر . المجموعة الأولى .

11 ـ صور وعبر من عجائب القدر . المجموعة الثانية .

12 ـ حديث القلب .

13 ـ النصائح الذهبيّة لتربية الأولاد ورعايتهم .

14 ـ قبسات من نور النبوّة لصاحبي الفضيلة : الشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني ، والشيخ عبد الفتّاح أبو غدّة رحمهما الله تعالى . بعناية د . عبد المجيد البيانوني ، وفي ختامه رسالة : " ومضات من هدي النبيّ الخاتم ﷺ " .

15 ـ تذكرة العابد بحقوق المساجد .

16 ـ أساليب تربويّة ومفاهيم دعويّة من حياة الشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني .

17 ـ ركائز دعويّة من هدي النبيّ ﷺ في العلاقات الاجتماعيّة .

18 ـ القول المبين في تفسير سورة : " يس " .

19 ـ لمحات من حياة الشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني وتعريف بمؤلّفاته . دار القلم

20 ـ مواقف تربويّة من هدي النبيّ ﷺ مع الأطفال .

21 ـ خمس عشرة مهارة تجعلك مربّياً متميّزاً .

22 ـ خطوة خطوة نحو التربية الناجحة .

23 ـ معالم تربويّة في حياة السلف .

24 ـ ثلاثون سبباً تمنعك من الطلاق . !

25 ـ إنّها الأنثى ! رؤى نقديّة لدعوى التمييز ضدّ المرأة .

بأبي أنت وأمّي يا رسول الله

سبحان من بعثك بالحنيفيّة السمحة ، وحباك الخلق العظيم

وأرسلك رحمة للعالمين ، بشيراً ونذيراً ، بين يدي الساعة ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وفتح بك أعيناً عمياً ، وآذاناً صمّاً ، وقلوباً غلفاً ، ورفع ذكرك في العالمين ، وجعلك خاتم النبيّين ، وعلّمك ما لم تكن تعلم ، وأيدك بنصره وبالمؤمنين وأعطاك فأرضاك ، وجعل شانئك هو الأبتر إلى يوم الدين صلّى الله عليك وعلى آل بيتك الأطهار وصحبك الأبرار ، وسلّم وبارك